خروج المتنبي من مصر

القسم الثالث

لحضرة صاحب العزة الأستاذ أحمد رمزي بك

سافرت في آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٥١ إلى خارج مصر لحضور اجتماع هيئة الأمم المتحدة ولم أعد إلا في النصف الأخير من شهر فبراير سنة ١٩٥٢ لذلك تأخرت في الكتابة عن رحلة المتنبي الذي لازمني طول مدة إقامتي بعيدا عن مصر

ذكرنا في المقالين الماضيين كيف قطع المتنبي المسافة بين الفسطاط ونخل في مرحلة واحدة وكيف مدح الهجن البيجاوية التي حملته هذه المسافة الطويلة بقوله :

ولكنهن جبال الحيساة وكبد الحداة وميط الأذى

ولم يقف أبو الطيب طويلا في نخل (١) التي تركها بعد أن مر بها ونفسه مملوءة بالفخر فقال :

فرت بنخل وفي ركبها عن المالين وعنه غنى

وسار من نخل حتى قرب من النقاب أو أشرف على ما نسميه اليوم رأس النقب وهو على حدود مصر الحالية . ثم نزل في الوادي وسار شمالا في القطاع الواقع الآن بين شرق الأردن ومصر والذي أصبح من أملاك إسرائيل . وانتهى إلى وادي تربان وهو واد ينزل من الحيمة إلى المنخفض الواقع في هذا القطاع (٢)

ويظهر أن أبا الطيب المتنبي أخفى نيته واتجاهه في السفر إذ يقول :

وأمست تخيرنا بالنقاب (٣) وادي المياه (٤) ووادي القرى (٥)

ويقصد بوادي المياه ووادي القرى الاتجاه جنوبا إلى الحجاز بدلا من الاتجاه شمالا إلى الشام وأخذ طريق الكوفة . ويظهر أن شمال الحجاز كان عامرا في عصره بدليل ما جاء في كتاب ذيل الأمالي صفحة ١٢١

ولما علوت اللابثي لشرقت قلوب إلى وادي القرى وعيون

كما جاء في كتاب الأمالي صفحة ٢٩٩ جزء ٢ شعر جميل

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي القرى إني إذا لسعيد

وجاء في صبح الأعشى جزء ٤ صفحة ٢٩٢ أنه بضم القاف وفتح الراء المهملة وألف في الآخر جمع قرية

الطريق الذي سلكه المتنبي

قال :

في الروض المعطار : وهي مدينة كثيرة النخل والبساتين والعيون بها ناس من ولد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وهم الغالبون عليها وتعرف بالواديين ، والذي أخبرني به أهل الحجاز أنه كان بها عيون كثيرة عليها عدة قرى فخربت لاختلاف العرب، وهي الآن خراب لا عامر بها ولو عمرت أغنت أهل الحجاز

(١) ياقوت جزء ٨ صفحة ٢٧٤ يظهر أن القلعة المبنية في نخل أنشئت في عهد بدستور المتنبي والأغلب أنه في عهد الأيوبيين أو أبناء دولة المماليك لا في العهد العثماني كما جاء في كتاب الدكتور عباس عمار

(٢) جزء أول معجم ما استعجم صفحة ٣٠٨ ، قال أبو زياد هو واد بين مياه كثيرة وأنشد

نظرت بمنحنى سيل تربان نظرة هل الله لي قبل الممات يعيدها

وهو غير تربان الذي قال عنه الأصمعي أنه بين مكة والمدينة

(٣) ياقوت جزء ٨ صفحة ٣٠٦

(٤) ياقوت جزء ٨ صفحة ٣٢٦

(٥) ياقوت جزء ٨ صفحة ٣٢٥ ـ صبح الأعشى جزء ٢ صفحة ٢٩٢

جميعا عن الميرة من غيرها

ولما صعد المتنبي الهضبة المقابلة ووصل إلى وادي تربان باح بما يجول في صدره وقال أين أرض العراق كما جاء في شعره :

وقلنا لها : أين أرض العراق؟ فقالت ونحن بتربان : ها

وجاء في ديوانه أنه حينما صعد النقب ومر بتربان وفيه ما يعرف بثرندل فسار يوما وبعض ليلة ونزل

وثرندل (٦) هي من المحطات التي قيل إن بني إسرائيل مروا بها بعد عبورهم البحر الأحمر — ذكر عنها صاحب كتاب Patesine under Muslims أنها كانت مركز أسقفية تحت اسم أرندلة وكانت واقعة على الطريق الروماني الذي يوصل إلى ايلياء (العقبة) الحالية

ومن المدهش أنه بمجرد قيام حرب فلسطين ودولة إسرائيل انقطعت المواصلات التليفونية بين مصر وسائر البلاد العربية ثم انقطعت الطرق البرية بين مصر والحجاز وشرق الأردن حتى الطريق الذي سلكه أبو الطيب المتنبي لم يعد بوسعنا أن نسلكه فكان أن أصبحت إسرائيل في الهباية تتحكم في مواصلاتنا

وتدل الأبحاث على أن هذه المنطقة بالذات كانت مسكونة بقبائل من العرب من معن وبني فزارة وسنبس(٧)

وقبل وصوله إلى هذه المنطقة تلقاه رائد من بني سليم سار معه حتى وسط بيوتهم آخر الليل فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء وذبح له. وسار من عنده فنزل بين بادية معن وسنبس وهي التي كان الوزير الناصر أبي محمد اليازوري الفاطمي يخشى قوتها وكانت تسكن حول غزة ثم انتشر نفوذها بعد ذلك وأخذت تقلق بال الفاطميين ثم انتقلت مع غيرها من بلاد الشام إلى مصر ومنها إلى المغرب. وقد ذكر الدكتور عباس مصطفى عمار أن مواطنها حول غزة. وجاء في ديوان أبي الطيب أن منطقة نفوذها امتدت إلى الجنوب فشملت الأجزاء المحيطة بالعقبة

ومن هذه المنطقة أي بين تربان وثرندل التي بجوارها أذرع والحيمة وهي مناطق معروفة بالتاريخ في القرن الأول الإسلامي وكان يسكنها طوائف من الطالبيين أبناء علي بن أبي طالب ومن العباسيين سلالة العباس طول عهد الدولة الأموية وذلك لما كانت عليه هذه المناطق من الخصب وكثرة المياه ، وليكون أبناء أبي طالب والعباس بذريتهم وتراثهم على مقربة من دمشق وبعيدين عن شيعتهم في العراق والحجاز فيسهل على الدولة مراقبتهم وتقصي أخبارهم

ويخيل إلى أن أبا الطيب كان غير مطمئن لسلامته إذا اتجه مباشرة إلى شمالي الحجاز عن طريق العقبة نظرا لما يعلمه من تحوط كافور واتصاله بعربان هذه المناطق . ويقول الديوان إنه بعد أن أمضى ليلته في هذه المنطقة من أرض الشراة اتجه إلى جبال حسمى وواجهته رياح الحجاز وقال في قصيدته :

وهبت بحسمى هبوب الدبور مستقبلات مهب الصبا

وجاء في ديوانه ذكر إرم وهو اسم علم لجبل من جبال حسمى من ديار جذام بين العقبة وتيه بني إسرائيل . وهذا الجبل حال عظيم العلو تزعم أهل البادية أن فيه كروما وصنوبرا ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد كتب إلى زعماء قبيلة جذام أن لهم جبل إرم لا يشاركهم فيه أحد ولا يحاقهم فيه غيرهم

وفي ديوان المتنبي أن امتداد جبال حسمى مسيرة ثلاثة أيام طولا في يومين عرضا ويعرفها كل من مر بها، وقد وجد أبو الطيب في حسمى بني فزارة وفيهم أولاد لاحق بن مخلب فنزل بينهم لأن أمير فزارة حسان بن حجمة كان بينه وبينه مودة وصداقة . وبهذا تحقق ما كتبه قبل ذلك من الشعر وهو بمصر إذ قال :

إذا سرنا عن الفسطاط يوما خافي الفوارس والرجالا

اتعلم قدر من فارقت مني وأنك رمت من ضيمي محالا

الكلام بقية

أحمد رمزي

المدير العام لمصلحة الاقتصاد الدولي

(٦) معجم البلدان ٣٩٥ جزء ٥ يقول عنها قرية في أرض الشراة

(٧) جمهرة أنساب العرب ص ٣٧٨ — من علي — سنبس بن معاوية من بني ثعل من سنبس معن بن قيس بن عائذ بن جرير رأس الخوارج يوم النهروان — الليل بن زيد غرق يوم جاز المسلمون دجلة إلى المدائن . منهم الخورجان بن مخصب دليل خالد بن الوليد من العراق إلى الشام مخترقا بادية السماوة قبل معارك العرب ضد الفرس